

## هل اليمن أصبح دولة ممانعة؟

**■ حميدي العبدالله**
الممانعة تعني كمصطلح سياسي الوقوف في وجه سياسات التبعية والوصاية التي تعتمدها الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة، وبدعم دول عربية تدور في فلك الغربي، حيث تحول مثل هذه السياسات دون ممارسة السيادة واستقلالية الإرادة والقرار الوطني.

اليمن قبل التطورات الأخيرة كان من بين الدول الخاضعة للوصاية الغربية ووصاية الدول الخليجية، والحكومة المركزية في صنعاء تمت تسميتها من قبل الدول الغربية والحكومات الخليجية على أساس ما عُرف بالمبادرة الخليجية». لكن اليمن اليوم يشهد تحولاً جذرياً، ليس فقط في توازن القوى الميداني، بين القوى التي تناهض السيطرة الغربية والوصاية المتحدة، وبين القوى الداعمة لهذه الولاية، بل وأيضاً على صعيد إعادة تكوين السلطة المركزية في صنعاء.

فالإتفاق الذي تمّ التوصل إليه بين القوى السياسية اليمنية بعد سيطرة حركة أنصار الله على العاصمة صنعاء وعلى مناطق واسعة من شمال اليمن ووسطه، تنصّ على تسمية رئيس حكومة جديد، وعلى تشكيل حكومة من الكفاءات تراعي التمثيل السياسي والحزبي، أي أنّ السلطة المركزية لم تعد بيد الجماعات وتمراكز النفوذ الحزبي، والعسكرية التي تؤيد سياسة التبعية للغرب والوصاية الخليجية، وأنّ ثقل القوى التي ترقع شعار «الموت لأميركا الموت لإسرائيل»،

وأصبح في تركيبة جهاز السلطة الجديد، سواء في جانبه العسكري أو المدني أو على مستوى صناعة القرار.

ومن الطبيعي الاستنتاج أنّ سياسة اليمن في ظلّ مثل هذه السلطة تخرج اليمن من دائرة المنظومة التابعة للغرب والوصاية بالحكومة الخليجية، ويبدئي هي هذا التحول التيمن إلى الضفة الأخرى، أي يجعله أقرب إلى منظومة المقاومة والممانعة في المنطقة إنّ لم يكن جزءاً لا يتجزأ منها، لكن هل هذا الاستنتاج سابق لأوانه؟ قد يكون الجواب نعم لو أنّ نفوذ حركة أنصار الله اقتصر على سيطرتها على مناطق في اليمن، أو حتى سيطرتها على العاصمة صنعاء ولكن من دون الإسهام في إعادة تشكيل مؤسسات الدولة. لكن الإتفاق الذي وقع بين حركة أنصار الله والرئيس اليمني والذي يفضّ على إعادة تشكيل جميع مؤسسات الدولة، بدءاً من مستشاري رئيس الجمهورية مروراً بمجلس الوزراء، وانتهاءً بالمؤسسات العسكرية، يعني أنّ طابع الدولة اليمنية يتغيّر من التبعية السياسية ومن ناحية الخيارات تغيراً جذرياً، وهذا التغيير هو الذي ينقل اليمن من دولة تدور في فلك الغرب والحكومات الخليجية، إلى دولة هي أقرب إلى منظومة المقاومة والممانعة إنّ لم تكن جزءاً منها، لا يغيّر من هذه الواقعة بشيء احتمال استمرار الأضرابات السياسية، ولا سيما في جنوب اليمن، مع تنظيم «القاعدة» فترة قد تطول وقد لا يؤدي اثبات السلطة الجديدة على عودة فورية للاستقرار في كل أنحاء اليمن.

## عين العرب... على عينك يا تاجر

بصورة لا تتناسب مع كل الكلام الأميركي والتركي عن المواجهة مع قيام إمارة «داعش»، والاستعداد لقتالها وصولاً إلى إسقاطها، يمتدّد مقاتلو «داعش» نحو عين العرب المعقل الكردي على الحدود السورية التركية، ويصير أمر سقوطها شبه محتمّ بعدما تركوا جيشون تحت ضوء الشمس كل السلاح الثقيل من دبابات وصواريخ ومدفعية غنومها من الجيش العراقي خصوصا ومن مستودعاته، كما تركت حشودهم المشربة تتحشّد من العراق لتشكّل نفوذاً بنسبة عشرة لواحده مقابل المقاتلين الإكراد في عين العرب.

ما يجري في عين العرب يطرح مصداقية حلف الحرب على «داعش» على محك أقوى من محك أساسي معلوم، وهو الدور الأصلي لمكوّنات هذا الحلف من السعودية وتركي، كما قال نائب الرئيس الأميركي جو بايدن رغم الاعتذار عن الأذى الذي تسبّب به كلامه من دون التراخي عن كلمة أو حرف منها، ومثلها تنمّة الحديث بسؤال عنوانه: هل تمّ ذلك الذي تحدّث عنه بايدن من دون معرفة ورضى أميركيين؟

لكن بعدما أعلن حلف الحرب، يمكن القول أو الافتراض أنّ ما جرى كان سوء حساب، وإنّ المراجعة تمّت وتتمّ، وبالتالي وعى الحلفاء متأخرين خطورة ما فعلوا ويسعون إلى تصحيح المسار، فهل هذا صحيح وقابل للتسديق؟

قبل الذي يجري في عين العرب يقول مسار تشكيل الحلف نفسه، أنّ الإستراتيجية بلا أوجهٍ بل يستحيل المزيد من الإستالة، فمن يريد حلفاً لحرب نظام صير الإثنائي وتخطّي الخلافات والإنقسامات كما قال الرئيس الأميركي توجه نحو روسيا والصين وإيران وسورية، أيّ الخصوم التقليديين والذين يشكل وجودهم في الحلف قيمة مضافة تغير الموازين كلها ولا يكشف الوجود عن حلفاء معلوم أنهم حلفاؤهم ظالماً أو مظلوماً.

ذهبوا إلى الأميركي إلى حلفه بالتعاون مع السعودية وجرحت أمريكا ببطء ذيلها للقول أخيراً لا بد من الدخول للحلف، واكتملت العدة نظريا وقانونياً بالقرارات الصادرة عن البرلمانات والحكومات.

جاءت معركة عين العرب لتكشف صدق النوايا، وحقائقه السياسات، فإلبلة الكردية تقاتل منذ شهرين وحدها، وطائرات التحالف التي فلتل المستحيل لعمارة أربيل من السقوط لا تحرك ساكناً، والقوات التركية العجيبة عشرات الأمتار تتخذ الإجراءات للتضييق على المقاتلين الإكراد الراغبين بالالتحاق للدفاع عن عين العرب، وتضع تركيا في المفاوضات مع قادة القوات المدافعة عن عين العرب شروطا للسمح بمرور المقاتلين فقط وليس لتقديم الدعم الناري والعسكري لرمع سقوطها، والشروط مذلّة يصعب قبولها من عيار الالتحاق بالقيادة التركية والمشاركة في القتال ضدّ الجيش السوري.

يستطيع أي مراقب أن يسجل مذبحة عين العرب ويكتب أنها مجزرة أوباما وأردوغان بحق الإكراد، وأنها تسليم باليد لـ«داعش» لخط الحدود مع تركيا لتتلفه من القوات الكردية غير المضيطة بقيادة مسعود البرزاني، الذي لم يرف له جفن أو يعلن أنّ يمشركته ستهبّ لنجدة كوياني، الاسم الكردي لعين العرب.

من ضمن السيناريوهات المتداولة أنّ يقوم الجيش التركي باسترداد عين العرب من «داعش» بعد سقوطها من يد الإكراد ليد «داعش»، بمسرحية عسكرية تشبه مسرحية خطف الرهائن الاتراك والإفراج عنهم من قبل «داعش».

حلف الحرب على «داعش»، حليف لـ«داعش» حيث تقتضي المصلحة.

«توب نيوز»

### بايدن لم يعترف

قال نائب الرئيس الأميركي جو بايدن أمام النخبة العسكرية والثقافية والسياسية والديبلوماسية الأميركية أنّ السبب الرئيسي لظهور وقوة «داعش» هو قيام الخليجيين التركي والسعودي وبعض حكام الخليج بإتفاق مئات ملايين الدولارات وشراء آلاف اطنان السلاح واستنجاب الآلاف من الإيرانيين أملاً بإسقاط الرئيس بشار الأسد والرهان على بقاء الوضع تحت السيطرة.
– أعلن مكتب رئيس تركيا ومثله حكومات خليجية عن تلقي اتصال من بايدن، وتضمنّت البيانات أنّ بايدن اعترف.

– لم يصدر عن مكتب بايدن نفي ما نسب إليه في الكلام عن تركيا والخليج،

ولا في الكلام المنسوب إليه عن الاعتذار.
– في حالات مشابهة لمواقف بهذه الحساسية والخطورة وخطاب معذّ سلفاً ومكتوب، تمّت رسائل واجبة التوجية بحتاط لردات الفعل عليها أيضاً سلفاً

وبعض مكتوب.

– لو كان المعنيّ ألمانيا أو اليابان لجاء كلام بايدن بصيغة ردّ مبرمج على سؤال مبرمج وقيل في التوضيح من مكتب بايدن وليس من المعنيين بالكلام أنّ الكلام مجتزأ وأخرج من سياقه فتشوّه المعنى.

– تركيا والخليج يتركان يقولوا هم أنهم لتقوا الاعتذار... وهذا مبرمج.

**التعليق السياسي**

## البناء

## هل تكون «عين العرب» معركة مفصلية تحدّد جدية التحالف في محاربة «داعش»؟

### ■ ميشيل حنا الحاج\*

يعد قرابة الشهرين من قيام التحالف ضدّ «داعش» بشكل خاص، والإرهاب بشكل عام، والذي ضمّ أكثر من خمسين دولة بينهم ثلاث من الدول الخمس الكبرى، وتنفيذ ذلك التحالف الذي فاق التحالف ضدّ «العراق» في عام 1990، بالعديد من عمليات القصف الجوي على مواقع «داعش» وألياتها، ظلت تلك المنظمة المرفوضة من المجتمع الدولي تحتفظ بزخم قوتها إلى درجة احتلت مستين قرية كردية في الشمال السوري، وباتت معها تهتّد باحتلال مدينة أخرى رئيسية في سورية، هي مدينة «عين العرب» (كوياني)، بعد أن احتلت منذ أشهر قليلة مدينتين رئيسيتين في العراق هما الموصل وتكريت، ومواقع أخرى في صحراء الأتبار.

ويصعب على المراقب أن يتفهّم عجز قوات التحالف، رغم ضخامتها، عن تجميع قوات «داعش» التي لا يزيد عددها عن الثلاثين ألف مقاتل في أقصى حدّ، بل وعن استيعاب قدرتها على تهديد مدن أخرى كعين العرب، في وقت توقع فيه البعض بعد تلك التسلسلة من الغارات الجوية، أن تنكمش قوتها ولو نسبياً، وادّ بها تنتقل من الدفاع إلى الهجوم، بل وإلى محاصرة مدينة كبرى تضمّ عادة أربع 400 ألف من السكان، متيحة الفرصة لتركيا للتهديد بالتدخل برا بذريعة الدفاع عن كوياني، وهي في حقيقة الأمر تتخذها مبرراً لإيجاد منطقة عازلة على الأراضي السورية، (وهو ما تستشرطه تركيا للدخول في التحالف)، تحدّد من قدرة القوات الجوية السورية على التحليق في فضائها، وهو ما تريده تركيا وتسعى إليه من وراء المنطقة العازلة، مما يعزز قدرات المعارضة لتركيا (المعتدلة) بشكل عام، وقدرات «داعش» بشكل خاص.

ويتوقع المراقب من دول التحالف إنّ كانت جادة حقاً في محاربة تنظيم «الدولة الإسلامية»، أن تبذل الجهد الأكبر للحيلولة دون سيطرتها على تلك المدينة التي تقول الإنداء إنّ مقاتلي «الدولة الإسلامية» قد باتوا على بعد كيلومتر واحد منها، بحيث باتت قدانفهم تظال بعض الأحياء في داخلها أو في أطرافها على الأقلّ. وذكرّت آخر الأنباء أنّ «داعش» قد سيطرت على جزء من هضبة «مشتي نور»، وهي هضبة مطلة على مدينة «كوياني».

وهكذا بات من الضروري أن تتحوّل المعركة الخاصة من يسيطر على كوياني، إلى معركة مفصلية تحدّد من تقدم «داعش» للسيطرة على منطقة أخرى تضاف إلى المناطق التي تسيطر عليها فعلا سواء في سورية أو في العراق. فجدية التحالف في الحيلولة بين «داعش» وبين تحقيق مرامها، انما يعزز بعض الثقة في التحالف، ويكشف عن نوايا جدية ضدّ تلك المنظمة الإرهابية.

أما أن يتّرك الأمر لقوات «داعش» للنجاح في السيطرة على المدينة المذكورة، أو للسماح لتركيا بالتدخل على الأراضي السورية بذريعة مساعدة أكراد المدينة، رغم معارضة سورية لتدخل قوات برية تركية في أراضيها، انما يكشف عن نوايا غير سليمة، خصوصا وقد كشف الغرب أخيراً على لسان نائب الرئيس الأميركي جوزيف بايدن، أنّ دولا حليفة ومنها تركيا، (وبعض هذه الدول بات عضوا في التحالف الحالي)، قد ساهمت في تمويل الإرهاب وخصوصا في تمويل «داعش» وتسليحه، وكان بايدن يشير إلى حلفائه من دول الخليج من دون أن يذكر اسمها، ثمّ أنه قد ذكر اسم تركيا بشكل واضح ومباشر.

وكان بايدن يلقي ضوعا على تصريح سابق للرئيس أوباما، قال فيه عن رجال مال وأعمال (وليس دولا) هم الذين يمولون «داعش» والمنظمات الإرهابية، فجاء تصريح بايدن مفسّرا وموضحا لما تردّد الرئيس أوباما في تفصيله، مع احتمال هامّ، بأن يكون ذلك الاتهام، سواء الصادر عن أوباما أو عن نائبه، انما يحاول إبعاد الشكوك عن اتهامات البعض لوشائطن بكونها الراعي الحقيقي للإرهاب.

وقدر البعض أنّ تصريحات جوزيف بايدن، ربما كانت مجرد زلة لسان،

## حلف أميركا يدعم الارهابيين... الأردن مثالا!

وتموليهم، ومعاقبة الدول الداعمة للإرهاب وفقاً للبنيد السابع من ميثاق الأمم المتحدة ووجوب محاربة الإرهاب أينما وجد.

تطبيقا للشريعة الدولية حرفياً طبّقت القرارات بدعمة أردنية، دعم بلا حدود للإرهابيين وتقديم بل ما يلزم لتخريب وتدمير سورية منطلقاً من درعا.

في العاصمة عمان يتمّ التخطيط لكل شيء فيه مصلحة أميركا و«إسرائيل»، ودمار العرب، وفي عام غرة عقدت عمليات إرهابية بغطاء ملكي خاص تدير العمليات في كل من سورية والعراق وأخيرا لبنان.

منذ ثلاثة أيام تحديداً تمّ حشد آلاف العناصر الإرهابية المتواجدة داخل الأردن مدعّمة بالسلاح الثقيل للدخول إلى سورية وتنفيذ ما خطه له في عمّان بالسيطرة على مواقع جديدة في درعا، وبالفعل تمّ الهجوم بقيادة مباشرة لضباط مخابرات أردنيين.

كل المؤامرات التي تصبّ تدميراً وقتلياً وتقسيمياً وذبّحاً تحاك في عمّان، وكل ما يشهده في القنيطرة وعلى تخوم الجولان هو بفعل أردني عسكري صرف، وما حدث أخيراً في برتال اللبنانية فيه بصمة واضحة للأردن.

الأردن «المملكة» أخطل من «إسرائيل» فأماذا نحن فاعلون وأين الردع؟

خاصة أنّ الإرهاب يمتدّد!

المملكة الهاشمية تبعد بالناز، وما زيارات عبدالله الثاني إلى موسكو إلاّ للذّن الرمادي للعيون!

في مشيخة قطر اراهبوتو العالم وفي مملكة هاشم صداميون (جناح الدوري) و«داعشيون»، و«بصرة»، وجيش حر، ومرتكزة لبيون بالآلاف، إذن ما نقوله صحيح ولا يصحّ الا الصحيح وصيخّ في حنيه... كلو بوقتو حلو... خاصة أنّ جردة الحساب باتت أقرب من الرمش إلى العين... وقد أعزّر من أنذر.

يد الجماعات التكفيرية... هذا عنوان العراض، أما التفاصيل فيحقّقها التنسيق بين المقاومة والجيش. يعني ما يراد قوله هو أنّ الجمهور الذي صدق قرار أربع سنوات أمام حجب التزوير والنهول والتشويه والشيطة، ومنح ثقته لقيادة الدولة السورية السياسية والعسكرية التي أثبتت أحقيتها وجدارتها بهذه الثقة لا يمكنه أن يجد لنفسه الآن الذرائع والتحجّلات الانعلاعية كوسيلة لإبداء رأي يبدو منقوصا وغير مكتمل – كحال المشهد الدولي العام – ووصف حلفاء سورية به،التحخال» أو «التراخي» أمام ما تتعرّض له أرضها المقدّسة من سيناريوهات «قد تنفجر وتخرج من السيطرة»، كما عبر وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف، خصوصا أنّ حجم الدعم والمساندة لم يهتّز منذ بدء الأزمة. في الحقيقة لقد سبق وأجاب الرئيس الإيراني حسن روحاني «أنّ أحدا لن يمنع غيران من قتال المنظمات التكفيرية في أي مكان في حال تفوّق المشهد»، وسبقه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين حين قال: «لن نخشى عن الأسد ولو وصل القتال إلى شوارع موسكو.... و ما قاله أمين عام المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني «إن إسقاط سورية حلم لن يتحقّق»... هذه الرسائل عناوين عريضة وتقعيلها سياسيا وعسكريا يبغي مهمة التنسيق بين كل أطراف الحلف الروسي الإيراني السوري المقاوم.

قائدهم المعلمن من غارات التحالف على الشمال السوري هو ضرب «داعش»، ومواقفها، ولكن على أرض الواقع ومنذ بدأت الغارات التي استهدفت المنشآت الحيوية السورية، قد سيطر هذا التنظيم على 17 قرية تقريبا وتمكّن من طرد أهلها نحو حدود تركيا التي تلوّح بالهدى على العسكري شمال سورية، والتي قال رئيسها الذي اعتمد العفر والحقد والحقق منهاجاً: «إن إسقاط الرئيس الأسد والحفاظ على وحدة سورية (؟؟؟) أولوية مطلقة، ليعمل بذلك عن نيّة حلف الولايات المتحدة الحقيقية». يبقى التساؤل عن كيفية معاقبة هذا التحالف سورية الأكبر.

## أراء

## هل تكون «عين العرب» معركة مفصلية تحدّد جدية التحالف في محاربة «داعش»؟

عُقد خصيصاً لاتخاذ قرار بالسعي لوقف التندّر حولها رئيسة تلك الدولة اللاتينية، إن دول العراق التي تتولّ الإرهاب وتمول «داعش» بالذات والتي تجتمع اليوم هنا لدراسة كيفية وقف تمويلها، وما لفت الانتباه، أنّ خطاب الرئيسة المذكورة والذي كان يبتّ على الهواء مباشرة، قد انقطع بوهة فجأة عندما بدأت تدخل في التفاصيل. ولم يعلم أحد إنّ كان ذلك الانقطاع نتيجة خلل فني، أم كان انقطاعا مقصودا.

ويشدّد البعض على القول إنّ معركة عين العرب باتت معركة مفصلية تكشف عن النوايا الجدية والمعتقبة لدول التحالف، وخصوصا الدولة الأميركية، لأنها ستكشف عن مدى جديتها في محاربة الإرهاب وخصوصا تنظيم «داعش». فالولايات المتحدة قد تردّدت طويلا في الشروع بتلك الحرب على الإرهاب، رغم كل النداءات والتحذيرات التي وجهها إليها بعض السياسيين والمحللين الاستراتيجيين من مخاطر السكوت عن التنامي التدريجي والمطوحد تلك القوة العاشمة، ويقول الدكتور خالد صفوري في حوار سياسي له على قناة «بي بي سي عربي» إنّ توقيت الشروع بالهجوم الأميركي، يوحى أو يربّح بأن الرئيس أوباما قد اقّره أخيراً نظراً إلى اقتراب موعد انتخابات الكونغرس الفدرالي، والتي ستجري بعد أسابيع قليلة، فالرئيس الأميركي بات يخشى فقدان حزبه الديمقراطي بنتيجة تلك الانتخابات، أغلبيته في مجلس الشيوخ، كما فقدها قبل عامين في المجلس النيابي، مما سيجعل من الصعب على الرئيس الأميركي تمرير أي من القوانين التي يريد تشريعها خلال مدة العامين المقبلة له في سدة الرئاسة الأميركية.

وهكذا بات يتجلّى للمراقبين، أنّ المعركة حول كوياني أو عين العرب، هي معركة مفصلية تؤكّد جدية أميركا ودول التحالف في محاربة الإرهاب،

وبالذات في محاربة تنظيم «داعش»، الذي طور أساليبه في تجنب مقابيل الغارات الجوية عليه، فبات يستخدّم في تنقل عناصره سيارات مدنيّة عوضا عن النقل بإليات عسكرية، كما لم يعد يرفع أعلامه السوداء على تلك الأليات، تجنّبا لإضمارها من قبل الطائرات المغربية.

والآن بات علينا الانتظار لاكتشف مستقبل تلك الغارات الجوية، ومدى فعاليتها وجديتها، بل ونجاحها، في مقاتلة «داعش»، خصوصا أن معركة قد تكون حاسمة جدا، تدور الآن على مشارف مدينة كوياني، أي عين العرب، وذلك إضافة إلى معركة أخرى لا بد من حسمها، وهي وقف تمويل «داعش» وتزويده بالسلاح، علما أنّ «داعش» قد بات يملك الآن مصادر تمويل ذاتية عن طريق بيع النفط الذي يستخرجه من آبار نطف سورية وعراقية، ولكنه نطف يصعب بلا قيمة إذا امتنعت الدول عن شرائه، علما بأنّ أهمّ أسواق ذلك النفط هي تركيا التي تشتريه بشراء نطف بثمن زهيد، بل ومزيد جدا.

فالحل الحقيقي لما يجري في المنطقة، وليس بفضية مدينة كوياني فحسب، لا يمكن أن يقتصر على قصف جوي أو حتى تدخل بري، إنما يقع بين يدي تركيا وتركيّا وحدها، التي يوسعها إغلاق قنودها في وجه تدفق المقاتلين والسلاح إلى الداخل السوري والعراقي، إضافة إلى وقف تدفق النفط غير الشرعي الذي ينتجه «داعش» إلى الداخل التركي باعتبارها المستهدف له، أو الطريق الوحيد لمروره إلى أسواق المستهلكين الآخرين إنّ وجدوا.

وعلى ضوء هذا الأمر، قد يفهم السبب وراء تصريحات بايدن المفاجئة، والتي تدّين تركيا باعتبارها الللاعب الأساسي في ما بات يحدث الآن في المنطقة.

\*عضو في جمعية الدراسات الاستراتيجية الفلسطينية (Think Tank).

عضو في مجموعة (لا للتدخل الأميركي والغربي) في البلاد العربية.
عضو في رابطة الصحافة والأخوة اللبنانية المغربية.

عضو في رابطة الأخوة المغربية التونسية.

### أن تكون ثائراً... هل هو اختيار؟

**■ عدنان كنفاني**
إن يكون الشهد الأديب غسان كنفاني ثائراً، فهذا قدره، وقدر الفلسطيني.

فالثورة ليست ممارسة سحرية أو لاجها، هي الحل السرّي الذي يمدّنا بأمل البقاء، وهي طريقة القسري كي نبقى، ونواصل، ونبنتنصر. لقد قام المخلصون من رجالات عكا بقبح الشراة التي أشعلت فتيل الثورة في عينه، وعندما وقف الحاكم العسكري الإنكليزي ليصدر الحكم بنفي الذي من مدينة عكا، ولد رجل من الأطفال، ولد غسان. لم يكن أمام غسان، والأجيال التي أتلت إلى نوا الحياة وسط هذه الأحداث، إلاّ أن يكونوا في آتون الثورة، ثوّارا وليس من معادلات تبيح الاختيار. كبر جيل 1936، وكبر غسان، فتحت مداركه على واقع اليم، لم يستطع، كما لم يستطع ذلك الجيل بأكمله، أن يجدوا في تلك السن المبكرة، ملاح أجوية لاستلة كفرة.

كانت بريطانيا، «الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس» مندّبة على فلسطين، وتمثّل السياسة الاستعمارية بامتياز في كثير من دول العالم، وكان من المفترض أن تحمل الأمانة الدولية لإدارة شؤون وسياسة واقتصاد وبناء وعسكرة فلسطين، لكنها «وهذه طبقة متأنّصة في المستعمرين، خانت الأمانة، وتبنت بقوّة الوعد الذي قطعهُ وزير خارجيتها «بلغور، بإقامة «وطن لليهود» على أرض فلسطين، واتخذت خطوات عملية لتحقيق ذلك الوعد، فقد استولت «حكومة الإنتداب البريطاني» على أراضي «الجلتك»، وأراضى الأوقاف العامة، والأراضي التي صنفتها الحكومة العثمانية على أنها أراض أميرية، وتقدّر بعشرات الآلاف من الدونمات، وقدمتها إلى اليهود من دون مقابل. وابتاحت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بل شجعتها، وجعل قانوناً بمنح الجنسية الفلسطينية لكل يهودي يقيم سنّتين في فلسطين، وغرامة مالية قدرها «جنيتين»، مما دفع اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين من شتى بقاع الأرض. وفي المقابل، كانت بريطانيا وهي تمثل «حكومة فلسطين» في ذلك الوقت، تتحكم على كل عربي يدخل فلسطين بالسجن ثمّ بالطر.

وقد سنت «حكومة فلسطين» القوانين الظالمة والمرهقة على الفلسطينيين، بما في ذلك جباية ضرائب قاحشة، وكانت تصدر العقارات العربية لأقل سبب، وتقوم ببيعها أو إهدائها إلى اليهود، وكانت شركة «أليكا» اليهودية هي الأنشطة في هذا المجال بدعم بريطاني كامل.

كما سمحت بفتح مكاتب لـ«الوكالة اليهودية» التي تمثّل يهود العالم في مدينة القدس، ناهيك عن الأحكام الجائرة التي كان القضاء الإنكليز يحكمون بها على الفلسطينيين لمجرّد الشبهة أحيانا، تنفيذاً للتعليمات التي تصدر عن «الوكالة اليهودية».

كان والذي رحمهُ الله كونه محامياً يرافع عن المتهمين العرب الذين يقدّمون إلى المحاكمات أمام المحاكم العسكرية المشكّلة وفقا لقانون الطوارئ، وحتى ساعة متأخرة يومها، وكانت شرطة الجيش قلته «محمروسا» إلى بيته، وذلك بسبب نظام منع التحوّل، وحدث أنّ اقتيد في مساء أحد تلك الأيام إلى المعتقل من دون ذكر الأسباب، وفي صباح اليوم التالي، عندما علم المعتقلون والموقوفون «الفلسطينيون» بماقتله، أعلنوا إضرابا، ورفضوا الذهاب إلى المحكمة مما دعا رئيس المحكمة «وهو إنكليزي طبعاً، إلى أن يستطلع الأسباب من جهات مسؤولة، كان الجواب مختصرا وحاسما: الاعتقال تمّ بناء على طلب «الوكالة اليهودية»؛ ولأنّ ذلك المحامي، والذي «يتعامل» على اليهود خلال العلاقات... وقد تحجّب القاضي من ذلك، وقال: ليس من حقّه أن يرافع عن موكله بحدود القانون؛ وكان أنّ استبدل بقاض غيره بسرعة ملفّته!

ومعلوم أنّ «الوكالة اليهودية» تسلّمت السلطة بعد الإعلان عن انتهاء الإنتداب.

إنّ ذلك لم ليس معلوماً جديدة أو غريبة، لكنني أتيت على ذكرها لأدلل على طبيعة العزاف والبيئية التي جعلت من غسان، وجيل غسان ثوّارا. كان غسان يراقب كل شيء بصمت ودخول، وقيل أنّ يلاص ملاعب طفولته أخرج من بلده ومن بيته مشرّداً لاجئاً، كل ما يعرّف عنه وعن حقّه في هذه الحياة بطاقة حمراء، وحفنة طحين، وقطعة صابون!

كنت أرى والذي يبكي وهو يراقب الطالبة الصغيرة يحمله غسان، ويجلس إليها أمام مبنى المحكمة «في بناية العابد بدمشق» يكتب العرائض مقابل قروش يبدسها في يد أمّه ليأكل الصغار... حتى عندما صار مدرّسا في مدرسة الأليانس، كان طفلاً.

وعندما سافر إلى الكويت ليبدأ الصراع «في ظروف صعبة جداً» مع الحياة، كان طفلاً، وكان يومه المرض بكل حياته كل يوم قسمة كان طفلاً أيضاً.

إذا مشت أن تسنّي كل هذه الآلام، وكل هذا الشقاء طفولة، فهي طفولة غسان. لقد رأى بيته في مدينة عكا وهو يغيب بلا عودة، ويرتاقه في يافا يسرق... رأى وطنه بغوص في الضياء، رأى الغأساة، كل المساة وعاشها بكل دقائقها ولحظاتها.

رأى العالم وهو يلهو على جراحنه، رأى الحكومات العربية وهي تضعنا على

طولة العزاف العنلي، رأى وجوده وحياته رقما في «شعبة الأجانب» في كل بلد

يدخل إليه.

فهل كان امامه أي مجال للاختيار؟

لقد كانت الثورة قدره، وقلته وقلته وفكره ووجدانه، واستطاعت الثورة

بصالتها المسكونة فيه أن تصل به إلى مصاف الكمال، حين توجّ بالمشادة.

فهل لنا بعد ذلك كله إلاّ أن تكون ثوّارا، وأن تكون الثورة قدرا؟